ابوالحسن علی الحسنی الندوی

سیاسة التربیة و التعلیم السلیمة

فی الأقطار ذات الشخصیة و العقائد و المبادیء
و ذات الرسالة و الدور القیادی

(فی ضوء العقل والعلم، وفی نظر أشهر علماء التربیة فی العصر الحدیث)

الناشر :
المجمع الاسلامی العلمی
ص. ب. ۱۱۹ لکهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المحاضرة

الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله .

أما بعد ! فان موضوع التربية فى الحكومات والبلاد الاسلامية ، وكيف يجب أن تكون سياسة التعليم فيها وإلى أين تتجه ؟ ، وما هى الأهداف الصحيحة ، و المثل العليا التى يجب أن تهدفها ، و تسعى لتحقيقها ؟ هو موضوع الساعة الذى يشغل قادة الفكر و المهتمين بشئون العالم الاسلامى فى جميع أنحائه ، و لعله هو الموضوع الحساس الحاسم الذى سيقرر مصير الأمة الاسلامية ، ومصير هذه الأقطار التى تدين بالاسلام ، و يصوغ مستقبلها .

و قد تناولت هذا الموضوع بالبحث والتفكير منذ عهد باكر ، و قد ظهرت لى فيه بحوث و مقالات فى الصحف و المجلات ، و رسائل و نشرات ، و مذكرات وجهت إلى وزراء التربية فى الأقطار الاسلامية و العربية ، منها رسالة « كيف توجه المعارف فى الأقطار الاسلامية » اطلعت على خمس طبعات لها صدرت فى العواصم العربية المختلفة ، و بحثت فى هذا الموضوع فى تفصيل فى

كتابي « الصراع بين الفكرة الاسلامية و الفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية » و ألقيت فيه محاضرات فى جامعات كبيرة فى الشرق و الغرب ، منها محاضرة ألقيتها فى جامعة الرياض فى ٢٢ شعبان ١٣٨٨هـ (١٣ نوفمبر ١٩٦٨م) ، جاءت فى كتابى الذى أسميته « نحو التربية الاسلامية الحرة فى الحكومات و البلاد الاسلامية » أصدرته « دار الارشاد » فى بيروت سنة ١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م .

و قد قرأت هذه المحاضرة (التى ألقيت فى جامعة الرياض) من جديد ، و استعرضتها فى ضوء ما جد من نظريات و أفكار ، و تجارب فى مجال التعليم و التربية ، و حوادث وقعت فى العالم الاسلامى بصفة عامة ، وفى العالم العربى بصفة خاصة ، فشعرت بأنه قد جاءت فيها الفكرة مختمرة ناضجة ، وفى وضوح كبير ، وصراحة بالغة ، و أنها تنطبق كل الانطباق على واقعنا اليوم ، و شعرت — فى غير تواضع ولا غرور — بأنها تشتمل على حقائق تاريخية ، و وثائق علمية ، تحتاج إلى دراسة و عناية من المعنيين بسياسة التربية و التعليم فى الأقطار الاسلامية ، و خاصة فى الجزيرة العربية ، و الواضعين للخططات التربوية ، و النظم التعليمية فيها ، و أنها لم تفقد شيئاً من جدتها و واقعيتها رغم أنه مضى عليها عدد من السنين .

و إلى هؤلاء السادة ، و إلى كل معنى بمستقبل هذه البلاد ، و مصير هذه الشعوب ، و الذين أكرمهم الله بالشعور بالأمانة ، فى الأرواح والنفوس ، و الضمائر و القلوب ، والمبادىء والعقائد ، و القيم و المفاهيم ، أقدم هذه المحاضرة راجياً من الله التوفيق ، و من أهل العلم ، و رواد الحقيقة التأمل و التفكير .

أبو الحسن على الحسنى الندوى
الأمين العام
لندوة العلماء فى الهند
٢٦/ جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ
١٩/ يونيو ١٩٧٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سياسة التربية و التعليم السليمة

فى ضوء أحدث نظريات علماء التربية فى العالم الحديث و تصريحاتهم

الحمد لله رب العالمين والصلاة و السلام على أشرف المرسلين و خاتم النبيين محمد و آله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

شعوران متناقضان :

أيها السادة :

إننى أشكركم من أعماق قلبى على هذه الفرصة الكريمة التى أتحتموها لى للتحدث فى موضوع التربية و التعليم فى هذه البلاد المقدسة ، وعلى هذه الثقة الغالية التى وضعتموها فى شخصى الحقير ، و ذلك إن دل على رحابة صدوركم وسعة قلوبكم و شدة عنايتكم بالموضوع وإيمانكم بقيمة التعليم النبوى القائل : « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » فانه يدل كذلك على وجهة نظركم إلى هذا البلد و اعتباره الوطن الاسلامى الأول للمسلمين ، الذى يتحتم

على كل مسلم الاهتمام بشئونه وبذل أفضل ما عنده من علم و تجربة و تفكير ، و اعتصار أحب ما عنده من عقل و قلب و ضمير .

إننى فى هذا الموقف الشريف الذى أقفه الآن أواجه صراعاً نفسياً ، فانه يجاذبنى عاملان متناقضان قويان ، أما العامل الأول فهو عامل السرور و الاعجاب ، و التقدير و الاعتراف ، ذلك لأننى إذا نظرت إلى الشبكة الدقيقة الواسعة من الكليات والثانويات والمدارس الابتدائية التى مدت على هذه الجزيرة المترامية الأطراف ، و التى لم يفلت منها مدينة كبيرة و لا قرية صغيرة ، وإذا نظرت إلى هذه الموازنة الضخمة الهائلة التى خصصت لنشر التعليم و الثقافة فى هذه المملكة ، و التى يحق لكل حكومة راقية عصرية أن تفتخر بها ، و إذا نظرت إلى عـــدد الأساتذة و المعلمين الذين جلبوا و لا يزالون يجلبون من الخارج ، و يتمتعون من وزارة المعارف و من المشرف عليها - الوزير العالم (١) - بكل تقدير و احترام ، و ما يتمتع به الطالب السعودى فى كل مرحلة من مراحل التعليم من تسهيلات ومرافق و أنواع من التشجيع ، وما يصح ان يسمى عطف الآباء ورعاية الأمهات ، مما يندر نظيره فى كثير من الأقطار الشرقية والغربية ، و إذا رأيت كفاح المملكة — عن طريق وزارة المعارف — فى محاربة الأمية ، و إذا قارنت بين عناية حكومـــة

(١) معالى الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف .

الأتراك و الأشراف بموضوع التعليم فى هذه البلاد ، و بين عناية هذه الحكومة بهذا الموضوع ، وإذا قارنت بين نسبة المتعلمين فى تلك الحكومات ونسبة المتعلمين فى هذه الحكومة ، غمرتنى موجة من السرور والاعجاب . ولم يسعنى إلا الاعتراف بعظمة هذا المشروع التعليمى العملاق الذى نهضت به المملكة العربية السعودية فى هذا العصر ، و وقفت أمام هـذا الصرح التعليمى الهـائل مشدوها ذاهلا لاأملك سوى الاعتراف بالأمر الواقع ، والثناء العاطر على ولاة الأمر ، ومن يرجع إليهم الفضل فى تحقيق هذه المأثرة الجليلة .

إن المسافة الطويلة الشاسعة التى قطعتها المملكة العربية السعودية فى مدة قصيرة فى مجال التربية و التعليم و العلم و الثقافـة و نشر الكتابة والقراءة فى الجهال و الأميين الذين كانت تزخر بهم المدن — فضلا عن البوادى فى القرى — قبل عقود من السنين ، و إن أفواج المتخرجين فى المدارس و المتعلمين فى الجامعات الغربيـة والحائزين منهم على شهادات عالية والمتخصصين منهم فى مواد دراسية متنوعة ، والحاذقين منهم لعدة لغات أجنبية ، إن كل هذه الحقائق تثير العجب والاعجاب بمآثر هذه الحكومة وجهود وزارة المعارف ، و هو العامل النفسى القوى الذى يملأ جوانح النفس و يوشك أن لايدع مجالا للتفكير فى موضوع آخر ولايسمح إلا بالتهنئة الحارة و بالشكر الخالص .

فرق بين بلد وليد لا رصيد له ، وبين بلد له جذور في الماضي ، وخيوط تربطه بالحاضر و المستقبل :

إنني إذا وقفت في بلد قد قفز إلى الوجود في طرفة عين ، و دخل في مصاف الأمم المتمدنة بين عشية و ضحاها . وانتقل من طور البداوة إلى طور الحضارة من غير « ذاتية » يعتز بها ، ومن غير رسالة ينوء بها ، و من غير عقائد و مبادىء مخصوصة يؤمن بها و يرتبط بها ارتباط الجسم بالروح و اللفظ بالمعنى ، ومن غير دعوة يعرف بها و تعرف به ، و من غير تاريخ و ماض يستلهم منهما المعاني الشريفة ، و يستمد منهما الثقة و القوة ، لو وقفت في مثل هذا البلد الوليد الجديد الذي لا يتصل بالحياة و لا بالأمم المعاصرة ، ولا بالقضايا الانسانية إلا عن طريق البطون والمعدات ، وعن طريق الحرف والصناعات ، وعن طريق اللغات واللهجات ، و عن طريق النقوش و الكتابات ، و عن طريق الحكومة و السفارات ، لكان هذا هو العامل الوحيد الذي يتحكم في عقليتي و يسيطر على حديثي .

انتشار العلم المجرد ، و التخلص من الأمية ليس مقياس النجاح ، في بلد يدين بدين ، ويحمل رسالة وحضارة :

أما العامل الثاني فهو الحذر و الاشفاق ، و قد ظل الحب

الخالص مصدر الحذر و الاشفاق دائماً ، و رافقته الغيرة فى كل زمان و مكان ، وذلك أن هذه الجزيرة ذات شخصية فرضتها عليها الحكمة الالهية قبل مئات من السنين ، و اقترنت بها اقتران الطبيعة و المزاج بفرد أو جماعة ، و رافقتها فى رحلتها التاريخيـــة الطويلة الشاقة المستقيمة الهادئة أحياناً ، والمتعطفة الملتوية أحياناً من غير أن تفارقها أو أن تتخلف عنها ، و لو فترة قصيرة من الزمان . وقد ساعـــدتها على ذلك جميع العوامل التاريخية و الطبيعية و الخلقيـــة و الاجتماعية ، و ألحت على أن تحتفظ بها و تستقيم عليها ، و هى ذات رسالة اختارها الله لها واختار الجزيرة لها وارتبطت مصلحة كل واحدة منهما بالأخرى ، وأصبحت محاولة تجريد كل واحدة منهما عن الأخرى محاولة أثيمة إجرامية ، فضلا عن أنها محاولة غير طبيعية و مخفقة دائماً .

وقد منحت هاتان الحقيقتان التاريخيتان الطبيعيتان هذه الجزيرة مركزاً رئيسياً فى كل فترة من فترات التاريخ ، و وضعتها فى محل القيادة و التوجيه و الاشراف و الحسبة ، و رفعتها عن مستوى التقليد و الاتباع ، و التمثيل و المحاكاة ، و التلذذ و التطفل ، و مجرد التنفيذ و التطبيق ، و الاقتباس والتلقين ، و فرضت عليها بطبيعة الحال الأصالة و الاستقلال ، سواء فى الأساليب المدنية ،

أو المناهج التعليمية . فليست قضية هذه البلاد التعليمية من البساطة و السهولة بالمكان الذى يتصوره كثير من رجال التربية و التعليم ، و لا يقاس النجاح فيها والتغلب على مشكلاتها بانتشار مجرد القراءة و الكتابة فى الجمهور ، و كثرة وجود مدارس البنين و البنات ، و قيام عدد ضخم من الثانويات والكليات ونشوء بعض الجامعات ، و كثرة عدد المتخرجين فيها ، و القاصدين إلى عواصم الأرض للتوسع فى الدراسات العليا والعائدين منهم بنجاح باهر ، والشاغلين منهم للمراكز الادارية والتعليمية الرئيسية ، فذلك مقياس يمكن أن يكون لبلد مغمور من بلاد إفريقيا التى دخلت فى حلبة المدنية العصرية حديثاً ، و قد أبى اليابان البوذى وأبت الهند البرهمية أن تتخذاه المقياس الحقيقى أو الهدف الأسمى من نشر العلم والثقافة و محاربة الأمية و الجهالة و ألحتا على أن يكون هذا التعليم و هذه الثقافة مصطبغين بصبغتهما الحضارية الخاصة ، و فلسفتهما العريقة فى القدم ، خاضعين للأسس الفكرية و الجذور العميقة التى تؤمنان بها وتعضان عليها بالنواجذ .

رفض البلاد السوفيتية الأخذ بمبدأ التعليم والتربية كمبدأ عام واستيراد منهج من الخارج ، وغيرتها على عقيدتها ، وفلسفتها :

وإضافة إلى ذلك فالبلاد السوفيتية التى رفضت الأديان قاطبة ،

و قطعت شوطاً بعيداً فى حرية الرأى ، وشاع عنها أنها تمنح كل إنسان حق الأخذ بما يحب ويختار ، وخلعت ربقة القيود والحدود ، و حاربت فكرة تقديس جميع أفراد البشر و فيهم الأنبياء و الرسل و الزعماء الروحيون ، و قادة الفكر و أصحاب المدارس الفكرية ، و أنكرت الاحتكار بكل أنواعه و مظاهره أن هذه البلاد لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنسانى عالمى وتراث بشرى مشاع ، و ماء صاف سائغ لا يتلون بلون ، ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم فى خارج المعسكر الشيوعى ، و لا بادخال العلوم والآداب التى نشأت فى حضانة المربين البورجوازيين أو الارستقراطيين، — كما تقول اللغة السوفيتية — و التى طعمت بأفكارهم و نزعاتهم وطرق تفكيرهم و يخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها . إن روسيا هذه التى حملت راية التحرر والثورة على كل تقليد و تقديس و تحديد و تقييد ، قد أخضعت جميع العلوم و الآداب النظرية منها و التطبيقية حتى علوم الطبيعة و الجغرافيا و التاريخ لمبادئها الشيوعية ، ولنظريات قادتها ومؤسسى دعوتها « كارل ماركس » و « انجلس » و « لينين » و ربطت بين هذه العلوم و بين أسس أولئك القادة رباطاً وثيقاً مقدساً ، تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرماتهم ، وغيرة العرب الأولين على عرضهم وأهلهم ، و يعلنون ذلك من غير أن يأخذهم فى ذلك حياء أو تردد .

ونكتفى هنا بشهادة واحدة لأحد أئمة التربية فى البلاد السوفيتية، يقول عالم طبيعى من كبار علماء البلاد السوفيتية (M. C. Govern)

« إن العلم الروسى ليس قسماً من أقسام العلم العالمى ، إنه قسم منفصل قائم بذاته ، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف . فان سمة العلم السوفيتى الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال فى حاجة إلى أساس ، و إن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التى قدمها (ماركس) و (انجلس) و (لينين) و (استالين) ، إنا نريد أن نخوض ، و فى أيدينا هذه الفلسفة ، فى معترك العلم الطبيعى العالمى ، و نصارع جميع التصورات الأجنبية التى تناهض فلسفتنا المادية و الماركسية بكل حزم و قوة » .

العلم السوفيتى له سمة خاصة وأساس مستقل :

و هكذا استطاعت أن توفق بين العلوم التى احتاجت إليها و المبادىء التى آمنت بها و تجعل منها وحدة متكاملة متناسقة ، و لم تترك فجوة بين الحياة التى تعيشها أو تسعى إليها و بين المبادىء التى تؤمن بها و تدعو إليها بحماسة ، وقد حاربت فى سبيلها حرباً شعواء ، و سلمت بذلك من الاضطراب الفكرى و القلق النفسى اللذين يسودان فى عالم تتوزعه القوى المتناقضة و يسوده النفاق و التناقض .

إباء البلاد الرأسمالية من استيراد المناهج التعليمية ، واستعارة الأساتذة الأجانب :

و كذلك البلاد الرأسمالية و إن اشتهرت فى العالم بمبدأ التسامح الدينى و الحرية المطلقة فى المذاهب و الآراء ، والاستفادة من كل مصدر و من كل إنتاج بشرى فى مجال العلم والتجربة ، إن هذه البلاد كذلك لا تسمح بالمواد الأجنبية و المناهج التعليمية التى تبذر بذور الشيوعية والاشتراكية المتطرفة ، وتستهزىء بفكرة الملكية و تثمير الثروة و تنظيمها على غير أسس الشيوعية الماركسية ، ولا تسمح ولا تفكر فى استيراد أقل عدد من الأساتذة من البلاد السوفيتية مهما بلغوا فى البراعة و الابداع ، و التفوق فى العلوم و الفنون .

و لم يقف الأمر على هذا الحد بل قد أصبح قادة التربية و التعليم فى الغرب ، لا يرون استيراد منهج تعليمى من بلد إلى بلد و لو كانا يلتقيان على العقيدة و الفكرة الأساسية فى الاجتماع والنظرة الواحدة إلى الانسان و الحياة والكون . فلا تفكر انجلترا فى استعارة المناهج التعليمية والنظريات التربوية من فرنسا ولا فرنسا من انجلترا — و هما الحليفتان فى الحروب والزميلتان فى الصلح — فضلا عن أن تقتبسا هذه المناهج من ألمانيا المنافسة الدائمة لهما البغيضة

القديمة إليها . و قد جمعت اللغة الانجليزية والثقافة الانجلوسكسانية و المصالح السياسية الكثيرة ، والزمالة المتكررة فى حربين عالميتين ، والمشاركة فى الدم والنسل إلى حدكبير بين الشعب البريطانى والشعب الأميركى ، وساد فى البلدين المذهب البروتستانتى فهو مذهب الأكثرية الساحقة فى هذين البلدين ، ولكن رغم هذه الالتقاءات كلها لايرى الموجهون لسير التربيـــة و التعليم و الواضعون لسياستها فى أمريكا استيراد مناهج التعليم و موادها من بريطانيا .

النظام التعليمى ليس بضاعة تستورد من بلد إلى بلد :

و من رأيهم أن النظام التعليمى ليس من البضائع التى تستورد من بلد إلى بلد ، كالمصنوعات أو المواد الخام أو مرافق الحيـاة . يقول الأستاذ الأميركى الكبير الدكتور (Dr. J. B. Conant) فى كتابه التربية و الحرية (Education & Liberty)

« إن عملية التربية ليست عملية تعاط و بيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل ، إننا فى فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية و الأوربية إلى بلادنا الأمريكية » .

التربية لباس يفصل على قامة الشعب و ملامحه :

إن التربية ـ أيها السادة ـ فى نظر هؤلاء القـادة — الذين

يغارون على شخصية شعوبهم وذاتية بلادهم — لباس يفصل على قامة هذه الشعوب و ملامحها القومية و تقاليـــدها الموروثة ، و آدابها المفضلة و أهدافها التى تعيش بها ، و تموت فى سبيلها : إنه لباس يجب أن ينسجم مع أجوائها و بيئاتها التى تعيش فيها ، و الآداب و العادات التى تحتضنها و التاريخ الذى تغار عليه و النماذج والمثل العليا التى تعشقها و تتغنى بها . و نحن المسلمين بالأولى يتحتم علينا أن نجعل عقائدنا التى جاءت بهـــا النبوة الأخيرة ، و الدين الذى لم تعبث به يد التحريف و المسخ ، و لم يخضع لقانون التطور و الارتقاء ، كما خضعت له الديانات الأخرى و عدلتها و هذبتها التجارب ، (كما دل على ذلك تاريخ هذه الديانات) وهى خاضعة لهذا القانون ، و لهذه العوامل الانسانية دائماً ، و لا تتمتع العقائد عندها ولا الحدود الفاصلة بين الكفر والايمان ، والدين والزندقة ، والتمسك والتحلل ، بالأهمية و السلطان ، كما تتمتع عقائدنا الدينية ، و ليس لديهم بين الكفر و الايمان ما لدينا من خطوط فاصلة ، وحدود حاسمة ، وفوارق واضحة ، لاتسامح فيها أكبر شخصية ، ولاتراعى فيها أكبر مصلحة ، فالديانات و العقائد فى أمم أخرى رقيقة مائعة أحيانا ، مبهمة غامضة أحياناً أخرى . أما الشخصية الاسلامية فانها شخصية واضحة الملامح ، معلومة الحدود .

مركز الجزيرة العربية الدقيق ، ومسئوليتها الضخمة :

و الجزيرة العربية لا تشارك الشعوب الاسلامية فى العقائد الدينية ، والشخصية الاسلامية فحسب ، بل إنها تنوء بأكبر أثقالها ، وتنهض بأعظم مسئوليتها من حيث هى الداعية الأولى لها . والمحافظة الدائمة عليها ، فهى مصدر الدعوة الاسلامية و معقلها و مأرزها ، و قد جاء فى حديث صحيح (إن الايمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) فنحن أولى بالغيرة على عقائدنا الدينية ، وشخصيتنا الاسلامية و رسالتنا الانسانية ، فى كل ما نأخذ و ندع ، وفى كل ما نبنى و نهدم ، و فى كل ما نقتبس ونتلقى ، من أى شعب وبلد فى العالم ، فنحن أولى بأن نفصل لباس التربية و التعليم و المناهج الدراسية و المواد العلمية على قامتنا و أن نخضعها أكثر من أى أمة وشعب لمبادئنا ، وأهدافنا التى نعيش لها ، والرسالة التى أكرمنا الله بها ، و كلفنا إبلاغها إلى الانسانية كلها ، فى كل عصر ، بقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر و تؤمنون بالله » و قوله : « و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس .

يجب أن تتناول العلوم والآداب الغربية كمواد خامة ، و نصوغها صياغة جديدة وفق حاجتنا :

فيجب أن لا تتناول العلوم و الآداب و المناهج التعليمية

و نظريات التربية التى ظهرت فى الغرب و الشرق على أنها آخر ما وصل إليه العلم البشرى ، و أنها شئ يتحتم على الأمم الشرقية أخذه و تطبيقه على علاته وطبائعه ، وعلى ما التصق به من عناصر محلية أو عوامل وقتية ، بل نأخذها على أنها تجـــارب بشر يخطىء و يصيب ، و يمشى و يتعثر ، و يبصر ويعمى ، و لا نأخذ العلوم و الآداب و اللغات على أنها أشياء قد بلغت نهايتها ، وختم عليها بختم لايفض ، بل نأخذها على أنها مواد خامة ، ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا و حاجتنا ، و نفرغها فى قالبنا ، و نجردها مما اقترن بها - فى غير لزوم ولا مبرر - من عوامل الالحاد والافساد ، والاستخفاف بالقيم الخلقية ، ونأخذها نقية صافية مهذبة منقحة ، بل نطعمها بالايمان بالله والنظر العميق — المؤسس على الايمان — إلى الكون ، و هكذا نجعل العلوم و الدراسات كلها فى غير تعسف و لا إرهاق ، وسيلة للعلم و الحكمة و سبيلا إلى الايمان والمعرفة فتكون مصداقاً لقوله تعالى : « و يتفكرون فى خلق السماوات و الأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا (١) » و قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢) » .

---

(١) آل عمران ١٩١ .

(٢) فاطر ٧٨ .

إنها أعظم تجربة فى العالم الاسلامى اليوم ، تقضى بها الظروف الحاضرة ، و يفرضها الصراع القائم بين العلم والدين ، وبين الطبقة المثقفة الحاكمة ، و بين الجمهور المؤمن السليم ، و إن هذه الجزيرة — بما هيأ الله لها من الأسباب و أتاح لها من الفرص وقيض لها من حكومة انبثقت من دعوة دينية تدعو إلى الدين الخالص وتحكيم الكتاب و السنة وتفتخر بالانتساب إليهما — إن هذه المملكة لهى خير حقل و مجال لهذه التجربة المباركة .

التربية والتعليم وسيلة لا غاية :

و لم تعد التربية و التعليم غاية فى الأمم التى بلغت سن الرشد و استكملت الوعى ، و تحررت من رق العبودية و التقليد الأعمى ، بل أصبحت وسيلة ، وقد كان العالم فى دور طفولته العقلية ينظر إلى أشياء كثيرة على أنها غاية و هدف ، ثم أصبح كل ذلك — مع تقدم العقل البشرى و التجارب الطويلة — وسيلة لغاية ، فلاغرابة إذا كان قد نظر إلى التربية و التعليم و إلى المدارس ومراكز الثقافة و المكتبات و دور النشر باعتبارها غاية ، و لا تزال هذه العقلية الطفولية شائعة مسيطرة فى الشرق ، فنحن إذا علمنا عدداً كبيراً من أفراد الشعب فن القراءة والكتابة و إذا أسسنا عدداً من المدارس و الكليات فى بلد شعرنا بأننا قد أدينا الرسالة و حققنا الغاية .

التعليم قنطرة تصل بين الحـاضر و الماضى ، وبين العلم والعقيدة :

و لكن الغرب الذى هام بالتعليم أكبر هيـام و حمل رايته خفاقة فى العصر الأخير و اشتهرت أكثر دوله وأقطاره بالعلمانية و بالحياد تارة وبالالحاد أخرى لم يعد ينظر إلى النظام التعليمى وإلى المناهج التعليمية من حيث هى آلات صماء لتعليم القراءة و الكتابة و نقل المعلومات مبعثرة لا تربط بينها وحدة ، و لا تجمع بينهـا غاية ، ولا يسيطر عليها إيمان وعقيدة ، و لا تصل الجيل الحاضر بالماضى ، و الأبنـاء بالآباء ، بل بالعكس من ذلك أصبح ينظر إلى النظام التعليمى من حيث هو قنطرة تصل بين الحاضر و المـاضى ، و الخلف بالسلف ، والمعلومات بالعقائد ، و تدعم العقيدة الموروثة بالعلم و المنطق ، و الدليل و الحجة ، و يعتبر هذا النظام التعليمى الذى ينفق عليه أكبر جزء من ثروته ، و أعظم قسط من مجهوده و أوفر نصيب من ذكائه ، عملية بناء وتكوين لاعملية هدم وتوهين ، و وسيلة ثقـة بين الأفراد و رباطاً بين الجماعات لا وسيلة ثورة فى الأفكار و اضطراب فى النفوس ، و تفكك فى العـرى و القوى ،

معنى التربية و التعليم و تعريفهما عند قادة التربيـــة و التعليم فى الغرب :

وهنا ثلاثة شواهد لثلاثة من قادة التربية والتعليم وأئمة الفكر فى العالم الغربى المعاصر، يقول (سير برسى نن Sir Percy Neinn) الذى يحتل الصدارة بين خبراء التعليم فى بريطانيا فى مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية .

« لقد سلك الناس مسالك مختلفة فى التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التى تسيطر عليها جميعاً : أن التربية هى الجهد الذى يقوم به آباء شعب و مربوه لانشاء الأجيال القادمـــة على أساس نظرية الحياة التى يؤمنون بها . إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير فى التلميذ ، تلك القوى الروحيـة التى تتصل بنظرية الحياة ، وتربى التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب و تمديدها إلى الأمام » .

و إن جون ديوى (Jhon Dewey) الذى كان تأثيره فى نظام التعليم الأمريكى أكبر من تأثير أى رجل فى هذا العصر، يقول فى كتابه «الديمقراطية والتربية» Democracy & Education « إن الأمة أنما تعيش بالتجديد و إن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه الأمة بطرق متنوعـة تكون من الأفراد الأميين

ورثة صالحين لوسائلها ، و نظرية حياتها ، و تصوغهم فى قوالب عقائدها و مناهج حياتها » .

و يقول البروفيسور كلارك Prof. Clark :

« مهما قيل فى تفسير التربية فيما لا محيص عنه أنها سعى للاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة ، وجهاد فى سبيل تخليدها و نقلها إلى الأجيال القادمة » .

عناية إسرائيل الخاصة بالتربية الدينية ، و التقاليد اليهودية :

و على هذه النقطة تضغط إسرائيل ضغطاً شديداً ، فهى من أشد الدول تمسكاً بمبدأ تقديم الفكرة الدينية و اللغة التى تعبر عنها و تضم ثروتها ، رغم جميع الاتجاهات التقدمية و مسايرة الدول الأوربية الراقية و توفر عدد كبير من البارعين فى العلوم العصرية و اللغات الأجنبية .

جاء فى كتاب « التربية فى الشرق العربى » وضع الدكتور رودرك مايوز ، و الدكتور متى عقراوى .

« إن أهم ما يسترعى الأنظار فى المدارس الاسرائيلية فى فلسطين أن لغة الدراسة فى كافة المواد هى العبرية فيما عدا اللغات الانجليزية و الفرنسية و العربية ، و العناية شديدة فى جميع مراحل

التعليم بالدراسة الدينية و جعل التعليم الدينى أساس الصهيونيـــة و تقدمها » .

ويفهم مما يلى هذه العبارة أن جميع أنواع المدارس الاسرائيلية أو اتجاهاتها تبعاً للأحزاب التى ينتمى إليها آباء التلاميـــذ - رغم اختلاف هذه الأحزاب فى مثلها العليا التعليمية والدينية والسياسية - تلتقى على هذه الفكرة الأساسية و تعنى عناية خاصة بالتربية الدينية ، و يرى بعضها أن التقاليد الدينية اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين أى أن يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية (١) .

و جاء فى مقال « التعليم العالى فى إسرائيل » فى مجلة فلسطين مقتبساً من الدراسة التى قدمتهـا دائرة البحوث و الدراسات فى الهيئة العربية العليا لفلسطين ، ما يلى :

« إن سياسة التعليم العالى تهدف إلى تنمية العقيـــدة اليهودية و الولاء لها . بالاضافة إلى الدعاية لاسرائيل و كسب الأصدقاء » .

و فى المقال تفاصيل هائلة عن العناية باللغة العبرية وجامعاتها و ميزانيتها وتمويلها و ما يبذل لها اليهود من عناية فائقة و أموال طائلة و تنظيمات دقيقة .

---

(١) راجع الفصل السابع عشر ، (المدارس الاسرائيلية ومناهجها) ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

تقرير المحاكم العليا و الأمم المتحدة ، بأن للأبوين
الحق الأول فى اختيار نوع التعليم وأسلوبه لطفلهما :

و كان أساس هذا التفكير كله — الذى يجعل التربية وسيلة لتدعيم العقيدة ، و القيم ، و المفاهيم ، التى يؤمن بهـا الشعب ، وتنميتها و إذكائها — أن الأصل هو عقيدة الأبوين ، وإرادتهما ، و أن لهما الحق الأول فى اختيار الوضع التعليمى لابنهما ، الذى هو قطعة من نفسهما ، و وارث آمالهما و أحلامهما .

و قد جاء فى حكم محكمة الاستئناف فى ولاية بومباى (الهند) فى شأن ، المرافعة التى رفعتها هيئة التعليم (المسيحية) فى بومباى ضد حكومة الولاية ، و طلبها من المحكمة أن تمنع الحكومة من تعليم أبناء المسيحيين ، ما لا يرضاه آباؤهم ، فأصدر رئيس القضاة ، وقاض آخر ، الحكم الذى جاء فيه :

« الشئ الذى يتمتع به المواطن فى ديمقراطية ، و الذى له قيمة كبيرة هو حرية الفكر ، و الذى لا يقبل جدلا ولا نقاشاً ، أن النظام السهل الساذج لضبط الفكرة ، هو الاشراف على نظام تعليم الشباب .

إن الحكومة ليس لها حق فى أن تقهر الأبوين ليعلما ابنهما التعليم الذى ترى وحدها أنه « التعليم الصالح » .

و فى إعلان الحقوق الانسانية الذى تشترك الهند فى عضويته ، يوجد كما يلى : « المادة ٦ » (رقم ٣) الأبوان لهما الحق الأول فى أن يختارا نوع التعليم الذى ينبغى أن يتلقاه طفلهما .

لذلك لما كان من حق الحكومة أن تجعل التعليم إجبارياً ، وتهيء الأسباب والمرافق لتلقى التعليم ، وتطبق منهاجاً خاصاً للتعليم فى مدارسها ، لايزال للأبوين الحق فى أن يقررا ، هل يذهب طفلهما إلى هذه المدرسة ، أو تلك المدرسة ، و أن يتلقى تعليمه فى هذا الأسلوب ، أو اسلوب آخر (١) » .

البلد الاسلامى العربى أحق بأن يستخدم العلم لترسيخ العقيدة ، وتثبيت دعائم الحياة :

فاذا كانت الأمم الغربية التى ضعفت صلتها بالعقيدة المسيحية و انحلت رابطتها بالقيم الخلقية التى دعت إليها تعاليم المسيح - عليه و على نبينا الصلاة والسلام - وساد فيها الشك والاضطراب وعدم الثقة بما يسمى حقائق و مقررات ، تنظر إلى نظامها التعليمى هذه النظرة الخاصة ، و تستخدمه لترسيخ العقيدة و تثبيت دعائم الحياة وإنشاء الانسجام بين الفرد والجماعة ، وبين العقل والعاطفة ، وبين الماضى والحاضر ، فكيف بالأمة الاسلامية و البلد الاسلامى العربى

(١) All India Reporter 1954 S, C. 561

الذى لم يحدث فى تاريخه ما يسمى « الصراع بين الكنيسة والعلم ، و الدين و الدولة » و لا وجود عنده لنظرية « فصل الدين عن السياسة » و ليس الدين عنده قضية شخصية و الذى لم يكن فى فترة من فترات التاريخ فريسة الالحاد المتطرف ، و لا الردة الدينية الشاملة .

الحربان العالميتان ، و الجـذام الخلقى ،
فى الشباب الجامعى أثبت إخفاق التعليم العالى :

ثم إن الحربين العالميتين الطاحنتين اللتين قادهما الرجال الذين بلغوا ذروة العلم و الثقافة أثبتتا فى الماضى القريب إخفاق التعليم العالى فى تكوين الأخلاق الصالحة و احترام الانسانية و العدل مع الأمم والشعوب الضعيفة ، وإن الجذام الخلقى الذى تجلى فى الشباب الجامعى فى أميريكا و أوربا و فى الهند وكثير من البلاد الشرقية ، و عبث المتعلمين بالقانون والنظام ، وانسياقهم مع رغباتهم الصبيانية و أغراضهم الخسيسة ، كل ذلك دل دلالة واضحة على أن التعليم ليس غاية فى نفسه ، بل هو وسيلة قد تنجح و قد تخفق ، و قد تنفع و قد تضر ، و قد تكون أداة بناء و تكوين ؛ و قد تكون آلة هدم و تقويض ، وأنها إذا تجردت عن عناصر الحصانة الخلقية والتوجيه الصالح وعن العقيدة السليمة وعن الوازع الخلقى والدينى ،

فان ضررها أكبر من نفعها . لذلك أصبحت التربية والتعليم فى العالم الغربى وفن القراءة والكتابة لا قيمة لها فى ذاتها عند كثير من قادة الفكر و أئمة التربية و التعليم فى العالم الغربى و أصبحت وسيلة تقوم بقيمة نتائجها و أخلاق حملتها و دورهم فى تكوين المجتمع و صيانته .

خضوع الجماهير للدعاية الساحرة للعلم المجرد ،

و تقديسهم الزائد للثقافة المطلقة :

إن الدعاية الجبارة التى قامت فى بلادنا الشرقية و نشطت لتمجيد التعليم و لفن القراءة و الكتابة بتعبير أصح ، وما ظهر من المبالغة و الاسراف ، و الخيال الشعرى فى قيمة الثقافة و التعليم العالى ، و التصوير البشع الذى صورت به الأميـــة فى كل حال ، و الازدراء و السخرية بالأفراد الذين لم تمكنهم الفرص من تلقى التعليم الجامعى ، كل ذلك أضفى على التربية و التعليم و على الثقافة نوعاً من القدسية و الروحانية ، و جعل الناس يغضون النظر عن حقائق كثيرة و عن عيوب و مواضع ضعف فى الطبقة المثقفة فى بلادنا ، وأصبح كثير من المغرورين يفضلون المتعلم المجرم اللئيم ، على الأمى المستقيم الكريم ، و يفضلون العصر الذى انتشر فيه فن القراءة والكتابة وانتشر التفسخ الخلقى ، والبلبلة الفكرية والتشكك فى المقررات و المسلمات و الحقائق و البديهيات ، و تشاغل الناس فيه بأنفسهم وأولادهم ، وفقدت الغيرة الدينية و الخلقية و أصبحت

المادة إله الجميع ، اصبح كثير من الناس يفضلون هذا العصر على جميع علاته على عصر توفرت فيه جميع الفضائل الدينية و الخلقية على قلة نسبة المتعلمين و ندرة المثقفين ، و انحصار فن القراءة و الكتابة فى نطاق محدود ، و ما ذلك إلا لخضوع هؤلاء لهذه الدعاية السطحية التى استخدمت لتهويل شأن التعليم والشهادات العلمية ، إنه تفكير سطحى يجب أن يترفع عنه أحرار الفكر و أصحاب الرسالة و المؤمنون بقيمة الأخلاق والأعمال الصالحة والمميزون بين الوسائل و الغايات :

مصير الشعب الذى يتضخم فيـــه
العلم على حساب العقيدة والخلق :

لقد أثبت التاريخ مرة بعد مرة أن الشعوب التى تتخذ الوسائل غايات و العلوم و الفنون آلهة تعبد و يقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان « بالفنون الجميلة » و تضعف فيها الارادة و قوة المقاومة للغريات و وسائل الترفيه و التسلية ، و تضعف فيها الغيرة و الحمية ، و تعشق الحياة و الملذات ، و تنتشر فيها البلبلة الفكرية ، و ينتشر فيها التشكيك الشامل للعقائد و الآداب و الاستخفاف بجميع التقاليد و العادات التى كان فيها الشئ الكثير من القوة و الصلاح . و يتطاول فيها

الريب إلى مصادر الدين ومراجع التاريخ وإلى الشخصيات القديمة ، و الحوادث التاريخية و إلى الأعراف و العادات ، يقود هذه الحملة فيها كبار الأساتذة ، و حذاق الأدباء ، و نوابغ الباحثين ، وحملة الأقلام ، و منشئو الصحف ، و ينتشر هذا السم فى كل طبقة من طبقات الأمة و يتسرب إلى عقول الشباب و نفوسهم ، و يتغلغل فى أحشائهم ، فان هذه الأمة لاتثبت أمام أى عدو زاحف أوقوة مهاجمة ، و لا تثبت فى معركة يوماً واحداً ، و هذه قصة اليونان و قصة الرومان و ما يوم النكبة فى الشرق (١) العربى منا ببعيد .

لنكن واقعيين عمليين ، و لنقرر الحقائق :

فلنكن واقعيين و لنحكم على التعليم العالى و على الثقافة الغربية الحكم الصحيح الدقيق ، المؤسس على التجارب والحقائق ، ولانظر إليها كالدواء الوحيد و لا ندن لها بالعظمة و التقديس ، ولنضبطها بعناصر و مقومات تنفى عنها عوامل الضرر و الافساد ، و دواعى الزيغ والالحاد والاتجاه الزائد إلى الميوعة والتحلل ، والاضطراب و التشكك فى كل شئ ، و لنكيفها مع عنـــاصر ثقافتنا و شخصيتنا الاسلامية ، و طبيعتنا العربية الشرقية ، و لنخضعها لرسالتنا العـالمية الخالدة و مبادئنا و نجعلها جنداً من جنودها .

---

(١) إشارة إلى نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧م .

أساس كل تفكير و تصميم ، أن الجزيرة العربية
هى غرس محمد ﷺ ، و ثمرة دعوته و جهاده :

و أخيراً لا آخراً ، يجب أن لا نخطو خطوة فى سبيل التربية و التعليم و فى تصميم المدنية و فى سبيل أى مخططات نضعها لهذه الجزيرة حتى نعرف ونذكر أن هذه الجزيرة العربية التى نعيش فيها الآن و نتحدث عنها هى غرس محمد ﷺ ، وثمرة دعوته وجهاده و له و لأصحابه و للمؤمنين بدعوته وحدهم الحق عليها ، فيجب أن يكون كل شئ يقوم فى هذه الجزيرة — من تنظيمات وتصميمات ، و مخططات ومؤسسات — معترفاً بهذا الحق خاضعاً لهذا الأصل ، عائشاً فى هذا الظل ، وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص دقيقاً كل الدقة فى أن تبقى هذه الجزيرة حصناً حصيناً للاسلام متماسكة قوية بعيدة عن كل اصطراع دينى و فوضى فكرية ، فعن جابر بن عبد الله قال : أخبرنى عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود و النصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً (١) » وقال : « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب (٢) » .

(١) رواه مسلم .
(٢) عن ابن شهاب مرسلا .

وقد شملت هذه الوصية الحكيمة والتعليم العميق الدقيق إقصاء كل عنصر يحدث فى قلعة الاسلام وعاصمة محمد عليه الصلاة والسلام الثورة و الردة و عدم الثقة بفضل الاسلام ، و خلود رسالته ، و عمومها للانسانية و انحصار السعادة فى العمل بها و النجاة فى قبولها و الايمان بها .

الجزيرة العربية عاصمة الاسلام ، و حصن الدعوة

فلا مجال للأديان المختلفة ، والفلسفات الهدامة فيها :

و « لا اكراه فى الدين » و تاريخ الاسلام لا يعرف محاكم التفتيش و وسائل التعذيب التى امتازت بها القرون المظلمة فى أوربا ، و لكل واحد أن يختار لنفسه ما يحب من الآراء و النظريات ، و لكن لا يسمح بنشر الفوضى و بذر بذور الشك والضعف وفقد الثقة بالمبادىء والأسس الاسلامية ، فى هذه الجزيرة التى هى قلب الاسلام ، و لا يؤذن بنشر الدعاية للقوى المعادية و المنافسة و للعسكرات الأجنبية فى عاصمة الاسلام و فى حصن الدعوة و فى ثكنة الجيش الاسلامى ، فمن لم تطب نفسه و لم ينشرح صدره للعقيدة الاسلامية و نبوة محمد عليه الصلاة و السلام ، و إمامته الخالدة العالمية و فضل تعاليمه ، و من آمن بالفلسفات الأجنبية ، و اقتنع بها وتحمس لها فليس له محل فى الحقيقة فى هذه الجزيرة و لا يجوز

أن تتاح له الفرص و تهيأ له الوسائل فى توجيه العقول و تربية النفوس ، و لا يصح مطلقاً أن تقدم له أفلاذ أكباد هذه الجزيرة و خيرة شبابها ليصنع من هذه الفطر السليمة ، التى هى من أكرم ذخائر العالم الاسلامى و أنفس ثرواته و أكثرها استعداداً للنبوغ ، مصنوعات لا تنسجم مع العقيدة والدعوة التى قامت عليها وعاشت لها هذه الجزيرة منذ أكثر من ألف سنة ، و التى لا يزال العالم الاسلامى متطلعاً إليها ، متشوقاً لها ، بل لا يزال العالم الانسانى كله مفتقراً إليها مقدراً لها كل التقدير .

هذه خواطر ومشاعر أملاها الاخلاص لهذه الجزيرة والحب لاخواننا العرب ، الذى أصبح جزءاً من أجزاء الايمان نابعاً من قرارة الضمير و الوجدان ، و إنى أطلب العفو و الصفح الجميل ، إذا كانت فى هذه الكلمة صراحة بلغت حد المرارة ، وأساءت بعض الاساءة إلى شعور السادة الأجلاء الذين بذلوا جهدهم - ولا يزالون - فى سبيل توجيه التربية ، و التوجيه الاسلامى و إنهاض هذه الجزيرة علمياً و ثقافياً ، و لا يدخرون فى ذلك جهداً ، فالنقد سهل و العمل صعب ، و التوجيه ميسور و التطبيق عسير ، و لهم من صاحب الحديث كل احترام و تقدير ، و اعتراف بالفضل الكبير .

نسأل الله جاهدين مخلصين أن يبارك المساعى ويسدد الخطى ، و يحقق المقاصد و الآمال ، و تعيش هـــذه البلاد دائماً فى ظل الايمان والاسلام ، والأمن و السلام .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هـــذه المحاضرة	٢
سياسة التربية و التعليم السليمة	٥
شعوران متناقضان	٥
فرق بين بلد وليد لا رصيد له ، و بين بلد له جذور في الماضى ، و خيوط تربطـــه بالحاضر و المستقبل	٨
انتشار العلم المجرد ، و التخلص من الأمية ليس مقياس النجاح ، فى بلد يدين بدين ، و يحمل رسالة و حضارة	٨
رفض البلاد السوفيتية الأخذ بمبدأ التعليم والتربية كمبدء عام واستيراد منهج من الخارج ، وغيرتها على عقيدتها ، وفلسفتها	١٠
العلم السوفيتى له سمة خاصة و أساس مستقل	١٢
إباء البلاد الرأسمالية من استيراد المناهج التعليمية ، و استعارة الأساتذة الأجانب	١٣
النظام التعليمى ليس بضاعة تستورد من بلد إلى بلد	١٤
التربية لباس يفصل على قامة الشعب و ملامحه	١٤
مركز الجزيرة العربية الدقيق ، و مسئوليتها الضخمة	١٦
يجب أن نتناول العلوم و الآداب الغربية ، كمواد عامة ، و نصوغها صياغة جديدة وفق حاجتنا	١٦

الموضوع	الصفحة
التربية و التعليم وسيلة لا غاية	١٨
التعليم قنطرة تصل بين الحاضر والماضى ، وبين العلم والعقيدة	١٩
معنى التربية والتعليم وتعريفهما عند قادة التربية والتعليم فى الغرب	٢٠
عناية إسرائيل الخاصة بالتربية الدينية و التقاليد اليهودية	٢١
تقرير المحاكم العليا و الأمم المتحدة ، بأن للأبوين الحق الأول فى اختيار نوع التعليم و أسلوبه لطفلهما	٢٣
البلد الاسلامى العربى أحق بأن يستخدم العلم لترسيخ العقيدة ، وتثبيت دعائم الحياة	٢٤
الحربان العالميتان ، و الجذام الخلقى ، فى الشباب الجامعى أثبت إخفاق التعليم العالى	٢٥
خضوع الجماهير للدعاية الساحرة للعلم المجرد ، وتقديسهم الزائد للثقافة المطلقة	٢٦
مصير الشعب الذى يتضخم فيه العلم على حساب العقيدة والخلق	٢٧
لنكن واقعيين عمليين ، و لنقرر الحقائق	٢٨
أساس كل تفكير وتصميم ، أن الجزيرة العربية هى غرس محمد ﷺ ، و ثمرة دعوته و جهاده	٢٩
الجزيرة العربية عاصمة الاسلام ، و حصن الدعوة ، فلا مجال للأديان المختلفة ، و الفلسفات الهدامة فيها	٣٠
الفهرس	٣٣